مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

محاضرة قضية التأويل بين القديم والجديد

تمهيد:

يرى المتتبع لقضية التأويل (**الهيرمينوطيقا**) في الدرس النقدي أنها غير مقتصرة على الحضارة الغربية فحسب، بل لها ملامح وجذور منذ القدم في التراث العربي من حيث المبادئ والأفكار، إلا أن المصطلح لم يكن متناولا حينذاك، ولصحة الاعتقاد يقول نصر أو زيد: "الهيرمينوطيقا ليست قضية خاصة بالفكر الغربي بل قضية لها وجودها الملح في تراثنا العربي القديم والجديد على حد السواء"، إذ تعلق هذا الوجود بالدرجة الأولى بالقرآن الكريم، وإن كان هناك من يعده تفسيرا وليس تأويلا، ولإزالة هذا اللبس لابد من الوقوف على مفهوم التأويل لغة واصطلاحا.

مفهوم التأويل عند القدامى:

المفهوم اللغوي للتأويل:

يجد الباحث عن كلمة التأويل في المعاجم العربية أنها تفيد بشكل أساسي: الرجوع والمصير وتفسير الكلام، فالأصل اللغوي: لكلمة "تأويل" هي مصدر للفعل (أوّل)، وهي مشتقة من (أوَل) أو (آل) الشيء يؤول أُولاً ومآلاً، أي: رجع وعاد. والرجوع إلى الأصل: تأويل الكلام هو ما يؤول إليه، أي ما يرجع إليه في النهاية. كما أفادت أيضا العاقبة والمصير: يقال تأويل الآية أو الكلام أي عاقبته وما يؤول إليه أمره. كما يراد بها التفسير والبيان: أوّلت الشيء وتأوّلته، أي فسّرته. وقد ذكر ابن الأثير وغيره أن التأويل هو التفسير. ولها مفهوم يعني الجمع والإصلاح: يقال "أوّلت الشيء" إذا جمعته وأصلحته، فالتأويل يجمع معاني الألفاظ المشكلة بلفظ واضح.

المفهوم الاصطلاحي للتأويل:

مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

تطورت حياة المسلمين نتيجة التقدم الزمني والتطور والثقافي وخروج العرب من باديتهم بفعل الفتوحات وكان نتيجة هذا التطور الفكري غلبت النزعة العقلية في تفسير النصوص الدينية خاصة بعد قيام بعض الفرق الدينية وتعدد الاتجاهات المذهبية والسياسية والنزاع حول الكثير من المسائل فتح المجال أمام التأويل، وبذلك انتقل التاويل من المعنى اللغوي على المعاني الاصطلاحية:

فقد ذكر السيوطي أن التأويل يعني: "ترجيح أحد المحتملات بدون القطع"، ويذهب ابن حزم إلى ان التأويل: "نقل اللفظ عمّا اقتضاه ظاهره، وعمّا وضع له في اللغة إلى معنى آخر"، وأما الغزالي في سياق حديثه عن الألفاظ والأخبار الموهمة للتشبيه بأن التأويل هو: "بيان معناه بعد إزالة ظاهره وهذا إما أن يقع من العامي مع نفسه أو من العارف مع العامي أو مع العارف مع ربّه"، وأما ابن رشد فيرى أن التأويل هو "إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز من تسمية الشيء بشبيهه في تعريف أصناف الكلام المجازي".

وبعد تقديم هذه المفاهيم الاصطلاحية على سبيل التمثيل لا الحصر وقفنا على أن معنى التأويل أخذ يتسع أكثر غير أن ما عرضناه من تعريفات اصطلاحية تبين لنا ان هناك عامل مشترك بينها هو كون التأويل عبارة عن صرف اللفظ من المعنى الظاهر إلى معنى آخر يحتمله اللفظ.

الفرق بين التأويل والتفسير:

اختلف العلماء في بيان الفَرْق بين التفسير والتأويل، وفي تحديد النسبة بينهما: قال أبو عُبَيدة: هما بمعنًى واحد، وعليه فهُما مترادفان، وهذا هو الشائعُ عند المتقدِّمين من علماء التفسير، كالإمام ابن جرير وغيره. وقال الراغب الأصفهاني: التفسيرُ أعمُّ من التأويل، وأكثرُ استعماله في الألْفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجُمَل، وأكثر ما يُستعمَل في الكتب الإلهية، والتفسير يُستعمل فيها وفي غيرها، فالتفسير إمَّا أن يُستعمل في غريب

الألفاظ كالبَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحَام، أو في تبيين المراد وشرْحه؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ سورة البقرة: 43، وإمَّا في كلام مضمَّن بقِصَّة لا يمكن تصوُّرُه إلا بمعرفتها؛ نحوَ قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ سورة التوبة: 37. وأمَّا التأويل، فإنَّه يُستعمَل مَرَّةً عامًّا، ومرةً خاصًّا، نحو (الكفر) المستعمَل تارةً في الجحود المطلَق، وتارةً في جحود الباري خاصَّة، و(الإيمان) المستعمل في التصديق المطلَق تارة، وفي تصديق دِين الحقِّ تارة، وإمَّا في لفظ مُشْتَرك بين معانٍ مختلفة، ونحو لفظ (وجد) المستعمل في الجد والوجد والوجود.

التأويل في النقد الأدبي القديم:

عرف التأويل عند العلماء المسلمين المهتمين بفهم القرآن الكريم، كأداة فعالة لمعرفة أحكامه وتبيين معانيه، ولم يقتصر الأمر عند حدود النص القرآني وإنما تجاوزه إلى حقل الأدب والنقد، خصوصا ما تعلق بالنصوص الشعرية ذلك أن التأويل يساعد على كشف خبايا بعض ما استغلق من المعاني ومن ملامح التأويل في النقد القديم:

التأويل عند القاضي الجرجاني:

يبين القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه أن التأويل يسمح بتعدد احتمالات المعاني للنص الواحد، نرى في تعليقه على قول المتنبي:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

يقول القاضي الجرجاني: فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه، وهذا هجو صريح، وقد رأيت من يعتذر به فيزعم أنه أراد: ما شرفت فقط بآبائي، أي لي مفاخر غير الأبوة، وفيّ مناقب سوى الحسب، وباب التأويل واسع والمقاصد مغيبة وإنما يستشهد بالظاهر، ويتتبع موقع اللفظ"، فالتأويل واسع عند القاضي الجرجاني والمعاني تكون ظاهرة أحيانا، وبعيدة مخفية وراء فيما الألفاظ في أحيانا أخرى، ويرى بأن هناك من " أراد أن يلتمس الأعذار

مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

للشاعر فيما أخطأ فيه فأشار ناقدنا إلى أن هناك من أول الشطر الأول من البيت تأويلا خاطئا بناء على النية والمقصد، مدعيا ان المتنبي أراد أن يشير إلى أن له مفاخر أخرى غير مفاخر الأبوة في حين يرى هو أن المقصود هنا هو ذاك الذي ظهر من خلال اللفظ.

التأويل عند عبد القاهر الجرجاني:

يشير عبد القاهر الجرجاني في الكثير من المواضع في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" إلى ضرورة إعمال الفكر، والتدبر في المعاني لبلوغ ما خفي منها، ويبين أن لذلك العناء حلاوة الوصول على الغاية، "في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل ألطف"، وفي موضع أخر من كتاب أسرار البلاغة يتحدث الجرجاني عن فائدة الاستعارة وقيمتها الجمالية في إشارة على تعدد الاحتمالات والتأويل فهي تعطيك، فهي تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرج من الصَدَفَة الواحدة الكثير من الدُرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر".

ومن هنا تبرز فائدة التأويل كآلية تسمح بالغوص في إعماق النصوص لاستجلاء ما وراء تلك الاستعارة "ومن ثم لا يمكن الوقوف في إيجاز الاستعارة عند حدود اللفظ بل يجب التأويل والغوص في باطن الكلام للوصول إلى تلك المعاني الكثيرة."

التأويل في النقد الجديد:

أدرك النقاد في العصر الحديث أمثال طه حسين ومحمد زكي العشماوي وجابر عصفور، وغيرهم ممن اهتموا بدراسة التراث النقدي، أن النقاد القدامى اعتمدوا على التأويل بوصفه آلية تسمح بالكشف عن مختلف المعاني التي تختفي وراء التراكيب اللغوية المتضمنة لاحتمالات عديدة.

وقد توقفت بعض الدراسات الحديثة عند فاعلية التأويل في النقد القديم ومدى امتلاك نقادنا القدامى للآليات التي تسمح باستخدام أنجع له، ومن بين الكتب التي تناولت القضية كتاب إشكاليات القراءة وآليات التأويل لنصر حامد أبو زيد.

وبالرغم من أن التأويل كان الأداة الإجرائية الأبرز في شروح وتحاليل النقاد للنصوص الأدبية، والشعرية منها على وجه الخصوص، إلا أن هذا لا ينفي وفق ما ذهب إليه نصر حامد أبو زيد "وعي القدماء أن تفسيراتهم –أو تأويلاتهم وعللهم- مجرد اجتهادات قد تقارب الحقيقة أحيانا وقد تبتعد عنها أحيانا أخرى، وفي هذا التصور إدراك للمسافة المعرفية التي تفصل بين الدارس وبين موضوعه، ... فالحقيقة عند القدماء غاية بعيدة يدرك كل إنسان طرفا منها ولا يدركها في شمولها أيحيط بها كلها، ولا شك ان مثل هذا التصور عند القدماء في مجال اللغة يتجاوب مع التصور العام للقافة العربية الإسلامية، خاصة في مجال تأويل النصوص الدينية".

خلاصة:

وفي الأخير نخلص إلى أنّ التأويل يمثل أحد أبرز أهم الآليات المعرفية التي واكبت الفكر العربي والإسلامي عبر مختلف حقبه الزمنية، حيث يعتبر الجسر الذي نعبر من خلاله من ظاهر النص إلى باطن، ومن معناه اللفظي إلى معنى أعمق، كما شهد مفهوم التأويل تطورا كبيرا بين المفكرين والنقاد القدامى والمحدثين، انتقل خلال هذا التطور من ضوابط شرعية (دينية) ولغوية محددة إلى فضاءات أوسع وأشمل تتداخل فيها السياقات المعرفية والنقدية.